

يوسف ادريس.. الى أين؟

بقلم احمد محمد عطية

((ان الفن في أعمق مستوياته احتجاج على ما هو كائن . ومن هنا بالذات يصبح الفن قضية سياسية))
(هيرت ماركوز)

- ١ -

كمشكلة الحرية ، التي رآها يوسف ادريس - في الفرافير - مفقودة في ظل كافة النظم الانسانية من البدائية الى الاشتراكية، ولكنه ترك باب البحث مفتوحا عن طريق جديد للانسانية . اما في « المهزلة الارضية » التي تتناول مشكلة انسانية اخرى مجردة هي الخير والشر ، فقد اصيب بطلها بجنون نتيجة لياسه المطلق من الوصول الى الحقيقة .

ومن هنا فان يوسف ادريس قد نغى تقريبا عن الواسع الاجتماعي مجاله الأثير والشهير، واخذ يحلق في آفاق انسانية رحبة، وقدم فنه القصصي والمسرحي تجريدا فكريا بعيدا عن الواقع المحلي الذي يشهد اخطر فترات التحول الاجتماعي .

واستهارا لهذا الخط البياني الهابط في تخطي مشاكل الواقع الاجتماعي والنظير الى آفاق انسانية عامة مجردة ، قدم يوسف ادريس اربعة اعمال جديدة . كتاب يحتوي بعض اطباعاه « بصراحة غير مطلقه » (كتاب الهلال - اكتوبر ١٩٦٨) ومسرحية « المخطئين » (مجلة المسرح مايو ١٩٦٩) ومجموعة قصصية « النداهة » (روايات الهلال سبتمبر ١٩٦٩) ورواية « البيضاء » (نشر دار الطليعة ببيروت) وهذه قراءة للاعمال الثلاثة . اما رواية « البيضاء » فهي رواية هابطة شكلا وموضوعا وتستحق مفا لامنفردا .

- ٢ -

في كتابه « بصراحة غير مطلقه » يتحدث يوسف ادريس بحبغامر للانسان بغض النظر عن انتماءاته الفكرية او الجنسية . الانسان اينما كان في الشمال او في الجنوب . في الشرق او في الغرب . الانسان وما يجمعه بأخيه الانسان من صلات وتشابه ، فان تأمل الانسان يؤدي بنا الى اكتشاف حقائق غير وارده بالكتب .

وتشغله مسائل الحياة والموت وتجديد الحياة وانسانية الحياة . وهو في كل هذا يحاول خلق نظرة خاصة له في الفن والفكر على حد سواء - فهو يعرف الفن تعريفا واسعا فضفاضا غربيا يتسع لكل شيء كقوله ان الفن ليس هو فقط الاشكال الفنية المتعارف عليها، وانما هو كل ما يجعل المستقبل ينفعل انفعالا يشبه انفعاله باي عمل فني . آيات الطبيعة ، جلسة صادقة صريحة مع اصدقاء . عمل قام به احدهم . (ص٨) .

غير ان له نظرات نضالية صائبة كقوله بأن الحياة معركة وليست نزهة او وليمة ، ومن لا يحاربها ميت ، وان ظلت تحمله

يوسف ادريس فنان مصري اصيل . شارك في تغيير وجه الفصحى المصرية القصيرة في اوائل الخمسينات بادخال البساطة والانسانية التشيكيوفيتين الى الفصحى المصرية . وفي ذلك الوقت ايضا شهد المجتمع المصري تغييرات حاسمة بالغاء معاهدة الاحتلال ثم بقيام الكفاح المسلح ضد الانجليز في قناة السويس وحريق القاهرة في ثورة شعبية عارمة تم قيام نوره يوليو ١٩٥٢ وما صاحبها من اجراءات ثورية .

وابتداء من يوسف ادريس اخذت القصة المصرية القصيرة تتناول من الحياة أبسط جزئياتها لتدلي لنا بمفاهيم انسانية بقدرة عامة - كما غمر يوسف ادريس القصة المصرية بلغة حيانية بسيطة مبهمة حتى سيطرت العامية على الحوار وعلى السرد ايضا في قصصه .

واسهم يوسف ادريس في مجال الرواية بروايات قصيرة أشهرها « الحرام » وهي رواية اجتماعية نقدية تلتقط نماذج معبره عن بؤس الفلاحين الاجراء .

وفي المسرح المصري شارك يوسف ادريس - في فترة بحول كثير من كتاب القصة المصريين الى الكتابة للمسرح - فانج مسرحيتين هامتين اثارنا جدلا كبيرا هما « الفرافير » و « المهزلة الارضية » . كما تفرد بنظرية جديدة في المسرح المصري في مقالات ثلاث نشرها بمجلة « الكاتب » بعنوان « نحو مسرح مصري » وخلص فسي نظريته الى ان المسرح ليس فنا اوروبيا وانما هو فن مصري له جذور قديمة في حلقات السامر الريفية المصرية .

ولكن يوسف ادريس - الذي وصفه الفاضل السوفييتي « يوري ناجيبين » بأنه فنان اصيل وشريف يكشف النقاب بجرأة عن مساوئ هذا المجتمع - تخلى عن اهتمامه بالواقع الاجتماعي المصري واخذ يحلق في آفاق الانسانية عامة بعيدا عن مشاكل التحول الاشتراكي . ذلك واضح في مجموعته القصصية قبل الاخيرة « لفة الآي آي » التي خلت من لفته الحياتية المميزة وبدأ يعزف الحان الغربة والتشاؤم مستخدما الرمزية بدلا من الواقعية والتشاؤم بدلا من التفاؤل . (راجع مقالنا مع يوسف ادريس من الالتزام الى الحيات والتشاؤم بمجلة « الحرية » اللبنانية اول غسطس (آب) ١٩٦٦) .

وفي المسرح بعد مسرحياته الاجتماعية « جمهورية فرحات » و « ملك القطن » و « اللحظة الحرجة » اتجه الى بحث مشاكل انسانية عامة،

المخطون - في رأي يوسف ادريس - هم السذبن يريدون أن يحدوا العالم بلا انسانية الى ابيض وأسود بلا معارضة وبلا خلاف . فكل شيء لديهم مخطط ، وجاهز ومحدد . والناس يسيرون كالاشياء وفق التخطيط ، كل وفق ما هو مخطط له .

فوفق نظرية شاملة متكاملة ترنو الى فرض وجودها على العالم كله تم للاخ الزعيم تنفيذ مخطظه بدفسة وتحول الناس جميعا الى مخططين وفق نظريته الشاملة ولكنه ظل يفقد السعادة التي طمخ اليها من أجل نفسه ومن أجل العالم . فعندما نجح في اخضاع العالم لنظريته شعر بأن الحياة توفقت لان العقل الانساني توفف عن التقدم والتنوع والابتكار . فكل الناس مخططون ، حتى عقولهم مخططة أيضا .

تفترت الحقيقة التي سمي اليها وفق مخطظه . ان العالم اذا سيطرت عليه فكرة واحدة أصبح كئيبا كريها ، فيجب أن تتنوع الافكار والالوان والرؤى حتى يصبح العالم انسانيا . ليس من الانسانية فرض نظرية واحدة على العالم بأسره . ان تخطيط العالم وتصنيفه واخضاعه وفقا لنظرية واحدة عمل يبعث على التنفرز . يجب أن يترك للناس حرية الاختيار ، كل انسان يختار وينتكر . يجب على كل انسان أن يختار لونه . يجب ألا يفرض العالم لون واحد أو مخطط واحد ، بل كل الالوان وكل الافكار الانسانية من أجل سعادة العالم .

فعندما يبدأ الزعيم الاخ في مناشدة رفاهه أن يعملوا من أجل تفتح العالم الى ألوان حسب رغبة كل انسان لا يجد من يسمعه أو يطيعه ، بل يكشف صعوبة الوصول الى مجلس ادارة العالم . انهم جميعا يعارضون العودة الى فكرة التنوع في الالوان والافكار . فالنظرية المخططة هي التي أعطتهم أهمية لوجودهم وبدون هذه النظرية لا قيمة لهم ، فهم يتمسكون بها وبتخطيط العالم الى ابيض وأسود كقندر حتمي . ان النظرية الواحدة ألقت عقل العالم ، وحتى الناس الذين أرادوا التغيير خافوه وانتقموا من صاحب النظرية خروجه عليها . فتقول المسرحية بان النظرية الواحدة واللون الواحد يلغيان العقل الانساني والفكر الانساني .

ونقول بان هذه الفكرة لا تنطبق الا على النظرية الاشتراكية ، اذ هي النظرية الانسانية المخططة الشاملة للعالم . وهي التي نظم الى أن تصبغ العالم كله بفكرها حتى لتزول الدول والحدود واللغات ولا يصبح هناك سوى الانسان بلا طبقات ولا صراع طبقي ولا استقلال ولا اضطهاد ولا نهب استعماري . بل عالم انساني واحد وطبقة واحدة ولغة واحدة وفكر واحد . هذا هو حلم الاشتراكية الاسمي الذي لم يتحقق بعد . فلا يسعنا الا أن نقول بان هذا النقد انما بوجهه المسرحية الى الاشتراكية كنظرية شاملة متكاملة ترنو الى سبر غسور العالم واخضاعه لفكرها وحتميتها . ويريد يوسف ادريس القول بان الزعيم الاشتراكي المخطط وهؤلاء الناس العاملين من أجل اسعاد العالم وفق نظرية مخططة لا يفعلون ذلك من أجل اسعاد العالم حقا وانما من أجل اسعاد أنفسهم ، ومن أجل أن يتمتعوا هم بلذة وسعادة الانتصار والسيطرة على العالم . فبعد أن تحققت النظرية ونجحت في العالم بأسره تنبه ضمير الفكر الاول في المسرحية والزعيم الاخ الى ان العالم ليس سعيدا سعادة حقيقية وانهم هم وحدهم السعداء . حتى لتهدده نظريته بالموت عن طريق أتباعه . ان الزعيم الذي بدأ بمصادرة حرية الانسان في اختيار ألوانه ومعتقداته تعرض هو لنفس الحرمان والمصادرة وألغى وجوده كإنسان وأصبح موجودا كصورة ومخطط فحسب .

وقد أثار مسرحية يوسف ادريس « المخططين » جدلا فكريا منذ صدورها . فرأى « أمير اسكندر » (مجلة المسرح عند يونيو ١٩٦٩) في المسرحية عودة الى الدعوة للفردي والليبرالية ومحاولة للرجوع

وهكذا فالمشاكل التي تشغل فكر ادينا يوسف ادريس في كتابه « بصراحة غير مطلقة » كلها مشاكل تمس الانسان، كل انسان بلا طبقات او حواجز او معتقدات ، من مرض البلهارسيا الذي يمتص دمنا فلاحينا الى سهولة الموت في المدينة الآلية ، الى البيروقراطية التي تهتم بفسسية مواعيد العمل ولا تهتم بدور المواطن ضد الاستعمار والصدوان .

ويوسف ادريس لديه حساسية من النقد ويصف النقاد الشبان بانهم صبية (ص ١٠٩) يكتبون في غيبة النقاد الكبار . ونقل نفس المعنى على لسان كاتبنا الكبير نجيب محفوظ وعندما سألت نجيب محفوظ عن مدى صحة هذا الكلام اكد لي بأنه لم يجر على لسانه قط . (راجع الآداب عدد يناير ١٩٧٠) .

وفي حماسة بالفة بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ - وفي حمى النقد الذاتي المريرة التي اجتاحت مجتمعنا العربي - نجد يوسف ادريس يلقي كل دور للثقافة وللفن . « او كان ما حدث في يونيو قد حدث لشعب آخر لترك كل شيء في حياته ، الثقافة والسينما والحبيب واي شيء ونذر نفسه لعملية اتبات وجوده اولا كإنسان يستحق الحياة على ظهر الارض ، اولا يستحقها بالرة ، ان ما حدث ليس امرا هينا بالرة ايها السادة . » (ص ١٦٢) ولكن لعل حماسته تغفر له مبالغاته .

- ٣ -

« المخططين » مسرحية فكرية من ثلاثة فصول وثلاثة مشاهد . في الفصل الاول نتعرف الى شخصيات المسرحية الكاريكاتيرية فنعرف انهم جماعة من النافمين على مجتمعهم ، وانهم في انتظار الاخ الذي ما ان يحضر حتى نيين لنا شخصيته المتسلطة ، فهو ديكتاتور الجماعة الامر الناهي فيها وهو يمارس صنوفا من الازهاب الفكري والمادي ضد المعارضين من افراد جماعته ، غير انهم جميعا يتصاعفون لامره ولتخطيطه ويرتدون جميعا مخطظه الموحد اللون الابيض والاسود .

وفي الفصل الثاني نتعرف الى احدي صور الفساد والبيروقراطية في مؤسسة عامة - هي مؤسسة السعادة الكبرى - حيث النفاق والفسح يجريان بصورة دائمة . وتخطط الجماعة للسيطرة على هذه المؤسسة البيروقراطية يعاود نفاقه وانتهازيته ويطلب العمل مع المخططين فيغزو المخططون كل اقسام المؤسسة ثم يقفز الزعيم الى رئاسة المؤسسة ويحول اسمها الى مؤسسة السعادة الحقيقية ايماء الى ان جماعة المخططين انما تسمى الى الحقيقة . ولكن رئيس المؤسسة البيروقراطي يعاود نفاقه وانتهازيته ويطلب العمل مع المخططين باي ثمن فيقبله الاخ الزعيم لانه لا غنى عن الانتهازية . ويشرع المخططون في السيطرة على العالم بأسره واخضاعه لخططهم وتحويله الى الابيض والاسود .

وما أن يبدأ الفصل الثالث حتى نجد العالم قد خطط بالفعل وفقا لنظرية الجماعة ويفرض الابيض والاسود حياة الناس وفكرهم . غير ان الاخ الزعيم يحس بخيبة أمل كبرى ، ذلك انه وجد العالم بلا سعادة حقيقية في ظل لون واحد ومخطط واحد ، وأيقن ان السعادة الحقيقية انما تكمن في تعدد الالوان والمخططات ، حتى اذا أراد أن يعلن فكره الجديد للعالم حالت الجماعة الجديدة بينه وبين الناس وحولته الى مجرد صورة في اطار ثابت لا يتحرك . وهكذا تنتهي المسرحية .

هي مسرحية سياسية مباشرة ، ومع انها غير محددة المكان أو الزمان ، فان الحوار والارض التي ينتقل عليها أبطال المسرحية بدلنا على وقتنا هذا . أما المشاكل فهي مطروقة ومعروفة - النفاق - فساد

بالعالم الى مرحلة تخطاها بالاشتراكية .

أما صبري حافظ (مجلة المسرح عدد اغسطس ١٩٦٩) فقد خالف رأي أمير اسكندر فانلا ان يوسف ادريس انما يهاجم النظم الرأسمالية والنظريات الشمولية الرجعية في المجتمعات التي يسيطر عليها حكم الفرد كنول اميركا اللاتينية والدول الامبرياليه . وان المسرحية بذلك لا تهاجم الاشتراكية وانما تهاجم كل نظريه شمولية تصادي سعادة البشر . ولكني اميل الى الاخذ برأي أمير اسكندر ، اذ ليست هناك نظريه شمولية تسمى الى تخطيط العالم وفق مذهب وفكرة مخططة سوى الاشتراكية ، الاشتراكية هي التي تسمى الى استيعاب العالم وفق مخطط فكري ومذهبي محدد . أما النظم الفاشية في اميركا اللاتينية فهي نظم فردية خالية من أي محتوى فكري وهي تتشدد مع الدول الامبريالية بأفكار الحرية الفردية وحرية الاختيار ، وتزعم بأن في الاشتراكية فضاء على حرية التنافس والابتكار .

— { —

((النداهة)) هي المدينة ، هي الفاهرة ، التي تفرق فاما الملىء بانياب الدناب لتفترس في وحتسيه طهارة القرية وعذريتها .
وقصة ((النداهة)) قصة بسيطة ، وهي في بساطتها عظيمة لانها عودة الى أسلوب يوسف ادريس الفني بالحياة ، البعيد عن التفرغ والتصنع ، والذي وصفه طه حسين من قبل (في مقدمة جمهورية فرحات) بأنه ((لا يجب التزيد في العول ولا يالف بهرج الكلام ولن تجد عنده كلمة فلفنة عن موضعها أو عبارة الا وهي تؤدي بالضببط ما ارادها على تأديته من المعاني)) .

وفكرة القصة مالوفة ومكررة في الشعر الحديث وفي القصة القصيرة الحديثة أيضا . فالعردية هي النقاء والطهر والاستقامة . واذ تفكر ((فتحة)) بطله القصة في الزواج من رجل يعيش في المدينة الباهرة املا في حياة مدنية لامعة فانما تنزل الى حثفها . ففتحية الفتاة الفروية التي رفضت فرويا ميسورا وفضلت عليه ((حامد)) الذي يعمل بوابا باحدى عمارات القاهرة الشاهقة املا في التشبه بنساء المدينة للامعات المصبوغات الباهرات وتطلعا الى حياة أفضل ، تهوي في هاوية المدينة الملونة . وهذا جزء رهيب للتطلع الطبقي في مجتمع طبقي . ان من يترك طبيئته يلقى حثفه ويفقد نصاعته وطهره الى الأبد . ولكنها عرفت ان مكانها في المدينة هو ذات مكانها في العمارة في حجرة أسفل السلم ووفوها عالم المدينة كله يأمر ويملك . ومهما حاولت فتحية الانكماش الا انها ارتمت في أول غاز من المدينة فاسلمت شرفها . وحين تلوت لم تفلح كل نداءات القرية في تطهيرها . حين هوت لم ترتفع أبدا اذ سقطت الى الإبد وفرت من رحلة العودة الى القرية البسيطة الطاهرة . وتلك نقمة الصعود في مجتمع المدينة الطبقي البشع . (وكذلك أيضا كان مصير كثير من أبطال نجيب محفوظ الذين حطمتهم محاولة الصعود الى طبقات أعلى كحسين في ((بداية ونهاية)) وحميدة في ((زقاق المدق))) .

((النداهة)) قصة جميلة وواقعية وغير مباشرة مع كونها مالوفة ومكررة ولكن ما يعيبها ان يوسف ادريس وضع لها نهاية خطابية زاعقة لم يكن لها داع ، لان المباشرة موجوجة في الفن ولان القصة قالت ما تريده بدون حاجة الى ختام مباشر .

حقا ان الفن العظيم هو احتجاج عظيم كما قال هربرت ماركوز والقصة تقليدية البناء ، فالاحداث مسلسلة كالحكاية ، والحكاية هي صلب القصة ، والسرد هو أساس البناء القصصي ، والوصف هو الصفة الغالبة على السرد ولكنه وصف باطني عميق وليس وصفا سطحيا .

في قصة ((مسحوق الهمس)) يلجأ يوسف ادريس الى أسلوب التحفيق الصحفي المتمد على الوصف الثرائ الذي يريد أن يصف

كل ما حوله من معالم الحياة هي السجن وصفا سطحيا مباشرا .

وحتى تصوير المتاعر الانسانية لبطل القصة السجين الانفرادي الذي يعاني من انعدام الحرية ومن منع الجنس ، حتى هذه المشاعر فانما يتم بصورها عن طريق الوصف الخارجي والجمل التقريرية المباشرة . والقصة تذكرنا بحوزي تشيكوف الذي مات ابنه الوحيد ولم يجد احدا يحادثه سوى حصانه .

فهنا شاعر سجين اعناد ان ينسى انسانيته وأن يعيش حياة السجن كرفم في زي السجن ، حتى انتقل الى زنانه مجاورة لسجن النساء ، فبدا نوع من الحديث الهامس - عن طريق الدق على الجدار المشترك والفاصل بين الرجال والنساء - والخيالات الجنسية الواسعة لمحتوى كل همسه مسحوفة وكل دفعة غير الجدران الصماء . وحتى في السجن المهين للاسايه لا يعقد الانسان انسانيته وغراته وعواطفه، اذ انها تستيقظ عند أول همسه ، غير ان يوسف ادريس يفاقتنا في نهاية القصة بالمفاجآت الموباسانية التي اشتهرت بها القصة المصرية القصيرة فسي نساتها ، فيعاجتنا بان الزنانات المجاورة ليس بها نساء .

وفي هذه القصة - مسحوق الهمس - ننتفى صفة اللفة لدى يوسف ادريس كواصل جيد للمعاني لدخول الى اداة للاستطرادات وادوصف السريري الساذج الملل .

وفي قصة ((ما خفي اعظم)) التي افهمها كدعابة خفيفة من يوسف ادريس ، يدخر المؤلف كل طائانه لمفاجاتنا في آخر القصة بأن زوجة الشيخ ((فمر)) بطل القصة - التي صمم الا يرى وجهها احدا ، وبعد مفامرات عجيبة من اهل القرية ومن الزوجين لم يفلح أحد في كشف وجهها الملتئم بالملاه السوداء - الا ان ازمه ولادة يمر بها الزوجان يكتشف فيها الزوجة عن كل جسدها وعن وجهها الذي يدخر لنا المؤلف مفاجأة فبحة في آخر سطور القصة كالفوازي .

أما في قصة ((المربة المعرة)) البالغة العصر (صفحة واحدة صغيرة) فيرتفع أسلوب يوسف ادريس الى درجة عالية من التكثيف السعري والرمزية . فالرمزية المعرة هي الحياة التي لا تتغير وهي الممات أيضا .

وتعود نبرة التشاؤم لمصير الانسانية الى فن يوسف ادريس في قصته ((معجزة العصر)) (وهي قصة قديمة سابعة على النكسة) ، فها هوذا يحدثنا عن شعور جارف يفمره بان الانسانية ماضية الى نهايتها الإبدية .

وبأسلوب المقال التفريري الجاف تتحدث هذه القصة في صفحات مطولة عن رجل في حچم نصف عقله هو معجزة العصر . وهذا المخلوق العجيب جعله يوسف ادريس آية من آيات النبوغ . فهو يجتاز سنوات الدراسة في ما يشبه لمح البصر ، وهو يجمع بين النجاح في تفوق ، في أكثر من كليه معا يحصل على أربع عشرة درجة دكتوراه في وقت واحد . حتى لقد بدأ يخترع نظريات فريسة في الفكر الانساني . واختلفت الآراء في تقديره ، ولكن موت السلطان راعيه اذهب عنه كل سلطان وتقرز منه الناس جميعا حتى انتهى الى فراغ يانس . وحاول الانتحار فلم يمت ، فبدأ يتسلل خفية الى حياة الناس ويجري تجاربه . حتى صنع الصواريخ وسفن الفضاء التي مكنته من غزو الكواكب الاخرى ومن خلق الانسان العبقري القادر على كل شيء ، واكتشف علاجا لكل مرض في كوكب آخر مماثل للارض . بل انه تمكن أيضا من علاج مشاكل النظم الاجتماعية الظلمة كالرأسمالية وذلك عن طريق مسحوق كيميائي مع ماء الشرب ، وحل مشاكل مثل الحرب والاستغلال ثم اكتشاف سر الكون . وبالجملة حول مجرى الحياة وأزال منها الفساد والاستغلال والمرض والجهل .

وذهب الى عوالم أخرى وعاد الى الارض ، وبفضله غزت الكواكب الاخرى الارض ، وحين ذاع صيته عاود الناس الاهتمام به ولكنهم

لم يعثروا عليه .

لقد تممت أن أقدم ملخصا وافيا لمحتوى هذه القصة القصيرة الطويلة لأبين مدى خواتها . فهي لا تتضمن الا السخرية من عقل الانسان ومن مصير الانسانية ، والتعلق بمعجزة بلهاء عليها أن تصحح الكون . فكل شيء في الحياة الانسانية من مشاكل المرض الى الاستغلال الرأسمالي الى الحروب الى غزو الفضاء ومعرفة سر الكون ، كل ذلك لن يحله الانسان لانه عاجز في مفهوم قصة يوسف ادريس « معجزة العصر » ، وانما سيحل بمعجزة العصر الرجل الذي في حجم نصف عقلة الاصبع .

وهكذا يتأرجح يوسف ادريس في مجموعته القصصية الاخيرة « النداهة » بين الواقعية والرمزية ، بين حينه للواقع الاجتماعي وبين فلقه من الواقع الانساني العام . وهو في واقعيته انساني متفائل ولكنه في رمزيته متشائم . وكذلك في قصة « النقطة » حيث الانسان في انتظار دائم وترقب وحزن غامر ، وحيث الطريق مجهول والامل غائر ، حيث يدور في فكر يوسف ادريس كل العالم منذ بدء الخليفة في صفحات محدودة .

وفصة « العملية الكبرى » قصة محكمة البناء الفني . فن طريق « الفلاش باك » والتداعي نقلنا يوسف ادريس نقلات محكمة ومنوازية بين الواقع والخلفية ويطور حدثه دفعة دفعة بمهارة واتقان رائعين .

اما العملية الكبرى فهي عملية جراحية قصد بها استئصال نوع ورم خبيث في معدة مريضة ، ثم محاولة استئصال الورم بجبروت شخصي من كبير الاطباء واستهانة منه بالحياة والموت وبالانسان المريض عموما . فمزق شريان السيدة المريضة ففاض الدم أنهارا وبذلك تعرضت المريضة لخطر الموت . وفي حجرة واحدة ضمت السيدة التي تموت والمرضة والطبيب الجراح الشاب دارت فستنا الحقيقية .

فقد بدا « ان السيدة قد حكم عليها ، هكذا ، بالموت ، وان العملية التي بدأت لعبة واستكشافا قد انقلبت الى مأساة » (ص 119) لان الجراحة في مستشفيات الفقراء تجري كتجارب عليهم استعراضا لمهارة الاطباء دون أي اعتبار آخر لانسانيتهم أو مرضهم . فالجراحة هنا تجري من أجل الجراحة وليس من أجل صحة المريض . هكذا يدرك الطبيب عبد الرؤوف بطل القصة . فيوسف ادريس يدلنا على ان الاستهانة بالمرضى الفقراء ومعاملتهم كحيوانات تجارب أمر مألوف في مستشفيات الفقراء ، ولذا فالعملية الكبرى التي تتحدث عنها القصة ليست هي العملية التي تؤدي بحياة المريضة بقدر ما هي في ما يجري في حجرة الموت ، الموت الذي يحوم فوق رؤوس الثلاثة ، المريضة والطبيب والمرضة . الموت يهدد الجميع المريض والسليم . وحتى يؤكدنا - الطبيب والمرضة - وجودهما الانساني ، راحا في عناق جيش حميم عفيف عار . وفي لحظة واحدة بدأت السيدة وهي تموت تتسم لقوة الحياة المتدفقة في المشهد الجنسي الانساني الجاري أمامها .

فالعملية الكبرى هي قصة من قصص الاحتجاج العظيمة ، ففيها نقد واحتجاج على الواقع الاجتماعي المر الذي يحيل المرضى الفقراء الى حيوانات تجارب في المستشفيات المجانية ، فهذه مأساة الطبقة ايضا . وهي احتجاج على أرستقراطية العلم حين يستخدم كفاية أو كوسيلة للترف وللعظمة الارستقراطية وليس كوسيلة لاسعاد البشر .

كما ان للقصة مغزى انساني عظيم مفاده انه اذا كان الموت ينتصر على الحياة في كل لحظة ، فان الاصرار على الحياة يجعلها بهيجة ويمكننا من انتزاع الحياة من برائن الموت .

والانسان في آخر قصص يوسف ادريس « دستور يا سيدة » يعاني من الوحدة والفرقة كما عانى بطلا القصة ، جدة في الخمسين ، وشاب في الثامنة عشرة ، وفي هذه القصة يختلط الجنس بالامومة ويفسر كل شيء تفسيراً جنسياً فرويدياً . فتزول كل العقبات فيما عدا عواطف الامومة وحب الام الارملة لمن في سن حفيدها وحب الشاب اليتيم الصغير لجذته . حب في أعرق أعماقه جنسي . وبنظرة فرويدية يتقلب الجنس على كل مشاعر الامومة والعطف والتقاليد الراسخة . ولكن الجنس يذهب وتبقى الوحدة التي يعانيها الانسان بعد أن يتم مهمته ، فينجب ويخلق أناسا آخرين لهم حيواتهم الخاصة وليس بينهم وبينه الا عواطف الجاملات الواجبة والثقيلة في آن واحد . « انها الوحدة الحقيقية كما لم تتصور وقوعها يوما .. » (ص 147) .

وبهذه النظرة التشاؤمية لمصير الانسان يختتم يوسف ادريس أحدث مجموعاته القصصية « النداهة » .

وهكذا يتأرجح يوسف ادريس بين التعريفات الواسعة للفن ، وبين الفائه لدور الفن في انطباعه « بصراحة غير مطلقة » . بين الايمان بالاشتراكية وبين الدعوة الليبرالية والفردية في مسرحيته « المخططين » .

بين التجريد والرمز وبين الواقعية . بين الفن والمباشرة . بين الاخلاص للواقع الاجتماعي والاحتجاج عليه وبين التطلع الى آفاق عالمية وتخطي مشاكل الواقع المحلي ، بين التفاؤل الواقعي والتشاؤم اللانساني في أحدث مجموعاته القصصية « النداهة » . فالى أين يمضي يوسف ادريس !؟

احمد محمد عطية

القاهرة

فارس مدينة القطرة

مجموعة قصص

بقلم الدكتور

عبد السلام العجايبي

صدر حديثا

٢٥٠ ق.ل.

منشورات دار الآداب